بُرْدَةُ العُرْسِ

و مِعراجُ الروح

امراء النصر و التحرير

قصة الشهيد يوسف دخيل ضيا

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org
شبكة المعارف الإسلامية
www.almaaref.org
جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
المعارف

بُردة العُرس ومِعراجُ الروح

قصة الشهيد

يوسف دخيل ضيا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾

صدق الله العظيم

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- **القصة:** بُردة العُرس ومِعراجُ الروح.
- **الكاتب:** الشيخ محمد سبيتي.

نالت القصة جائزة الوحدة الثقافية لحزب اللّه

- **الناشر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى ـ ٢٠٠١م.

بطاقة هوية

الاسم والشهرة: يوسف ضيا.

اســـــم الأب: دخيل.

اســـــم الأم: روشينا.

مـــوالـيـــد: ١٩٦٣/٢/٦.

رقـم السجـل: ١٥٥.

تـاريخ الاستشهاد: ١٩٩٠/٢/٦.

مكـان الإستشهاد: موقع الدبشة.

مكـان دفنـــــه: كفرصير/الجنوب اللبناني.

متزوج وله ولد (محمد باقر).

رشحة من غدير الشهيد

شبَّ وعيناهُ مثقلتان بوَجَع الحِرمان، بينهما يرتع طيف حُلُمٍ وديع يُدغدغُ كوامنه كلَّما تمثَّل في ذِكراه.

جبهته النضَّة صفحة صفاءٍ توشَّحت بمسحات البُشرى، وثفنةُ أثلامٍ بعيدةٍ تتجلى معالم العُنفوان فيها كلَّما عقد حاجبيه ليُمعن السفر مُصوباً حدقتيه نحو آماله العذاب.

جنوبيٌّ عامليٌّ، جُبِلَت دماؤه بتُراب الضيعة، وتركت الشمس على مُحياه شمعة ضياء، تُشرق على ملامح وجهه المشبَّع بأسارير الاعتزاز... تُزينه البسمة المرسومة بصبغة الخلود على شفتيه الذَّابلتين.

صدّيق جلَّ قلبه عن أن يحمل لأحد غلاً..

إذ أن حنايا قلبه أُترعت وجداً وارتوت طُرَّ الهوى.. وامتهى روضُ روحه فُرات الخمرِ المجبولة بتباتيل الصلاة، فاحترقت ذاته في شمعة المحراب لتَسِمَهُ بهالة الصَّلاح مُشعَّةً في ثنايا هامته سناءً وصفاء..

هو يوسف بعفَّة نفسه.. وبهاء وجهه.. هو الصدِّيق إلى أبعد ما تحمله الكلمة من كمالات..

من عاشَرَهُ عشِقه..اشتدّ به لصوقاً وازداد به لحوقاً حتى ليضيق ذرعاً إذا ما فارقه فينةَ زمنٍ أو اشتغل عنه بشأن..

في مجلسه يُغنيك صمته عن خطابه.. ويكفيك تيماً أن تجولَ بعينيك في صبح وجهه البسَّام.. وتمخر من قارب ما خطَّته محاسن طلعته النورانية ماخراً بطرفك حتى الجحوظ لتفقه سرَّ الهدوء البارز والذَّبول المتدلي خماراً جذَّاباً يدعوك لظُرْفه بوحي للسكون والمثول في حضرته الملكوتية.. فتتثمل بسَكَرِ الهيبة وتنتشي بروعة المقام..

فإذا ما تناهت إلى مسامعك بناتُ شفتيه مرصوفة رقراقة، وطالَعَك بحديثه النجيّ حتى لتشعر أن كلماته تنساب إنسكاباً في حوض قلبك وتُترعه حياةً.. وأملاً وعزيمة.. ورجاء..

هو يوسف الشاهِد.. يوسف الشَّهيد..

روعة الولادة ولوعة الصبى

مع أنفاس صباح من صباحات تل الزعتر، فغر نجم السعد فاه لينشد إطلالة اليمن، وازدانت «أسرة أبي رفيق ضيا» بمولودها البشرى، وظللت البيت البائس المتواضع سعادة تتمطَّى على الوجوه السُّمر، وشقَّت أسارير البهجة طريقها عنوة بين مطاوي الشَّقاء المحفورة في جِباه الأهل والأحباب..

وتمتمت شفاه البيت المعمور بطهر الايمان صلاة الشكر وآيات الحمد على سلامة الوالدة وبشارة المولود..

هناك في تل الزعتر.. بل تل العلقم والشوك والمرارات.. تل الحرمان والبؤس والعذابات واختناق

الصـوت الحـرِّ في دياجيـر العنتـريَّات والتـزلُّم والمرتزقات المزروعة كما القتاد في طريق المساكين، تخرط أيديهم العاملة التي قبَّلتها شِفاه النبي لِما صاغت من كفاح وعطاءات..

هناك شبَّ يوسف.. بين آكام الكرامات.. وأنقاض الرحـمـة والمودَّة والأمـان، وبقـايا تأوهات تزفُـرها أقفاص صدور مُثقلةٍ بشجن الكبت وشبح الرعب وشيطان الجوع الماثل ككوابيس الغيلان تجتاح أمن المحرومين وتسرق فُتات فرحةِ الأطفال..

في تل المأساة امتهت شفتا يوسف أول قطرات اللبن الحنون.. معجوناً بطعم الأسى.. ممزوجاً بلون الوجع، تُذكيه العافيةُ وزلال الحلال..

وعيناه هناك رسمتا لوحة الوجود الأولى.. وصوَّرتا هيكل الحياة البكر، لتتربع تل الزعتر بمراتعها الكئيبة عرش ذاكرة يوسف وتستأثر بدفق وجدانه كأوّل سطرٍ في كتاب حياته الكريم..

وتمضي الأيام تتراءى.. ثقيلةَ.. قاسيةَ تحمل كل شيء إلاَّ غَـرفَـة رأفـةٍ ترفق بهـا على صِبى يوسف النَّضر، أو مسحة رحمةٍ تبلُّ بها عُودَهُ الريَّان، فيجمع من عصف الأيام الحُبلى ببنات الدهر الضرير ألوان الأحلام، وأشعةَ صفراء جمعها من وجوه الكادحين ليكبُر مشهدُ الحرمان في مسرح عينيه عاصفاً بحشايا الذاكرة الرفيقة ناسفاً حتى أحلامه الرقيقة المنسوجة بخيط العنكبوت ليداعب الأسى بغير حنوّ قلبَه الطيبَ إذا ما أرَّقت نوَّارَ روحه المأساة..

ويكبر يوسف وليس للكآبة والتجهّم في وجهه ملمس، يصبو يوسف وتزيّن روحه أنفة العنفوان وعزَّة النفس، ليس للمذلَّة والانكسار في لغة عزمه حرف..

لم تثنِ معالمُ الفقر والفاقة فيه عزيمة، ولم تُخمد عوادي الأحداث المريرة في وجدانه حلماً..

قضى ربيع صباه بين ربوع الزَّعتر والدَّحنون والجمّيز تتوسَّد الفراشات راحة كفَّيه وتغطّ طيور

الحُبِّ على كتفيه طريةَ لا يعرفُ نجواها مع يوسف إلاَّ يوسف، يغفو هادئاً ويستفيق باسماً، خفيف الظل دمثَ الخلق، ينهضُ مع أنفاس الصباح، يعطر أثيره بأريج أنفاسه، وعلى عتبة البيت عند باب الصباح يربضُ صامتاً.. يرنو وادعاً.. يرقبُ مقدم الشمس ملكةَ جليلةَ تتقدَّمها حاشيةُ أشعتها، مهيبة مزهوة، توزّع حنينها دفءَ يملأ حنايا يوسف لتستحيل حرارة الصفو في نفسه شمساً ينسج منها أشعة الأحلام العذاب..

وهكذا كانت صباحات يوسف.. صباحاً أروع من صباح..

ولم يَحُلّ الوجوم الجاثم على المحلَّة بين يوسف وغاياته البعيدات..

ولم يُطفىء اليأس المخيِّم على أذهان القاطنين هناك في يوسف جذوة الطموح والكفاح والعزيمة المغروزة في منابض عروقه الحيَّة لا تفتر ولا تموت..

لم تقتل مشاهد الرعب التي واكبت الشاهد الشهيد .. من مهد طفولته الى شهدِ صباه علوَّ الهمَّة وصلابة الإصرار ..

لا .. ولا أشلاءُ المذبوحين بخنجر الهَوَس، ورصاص الطَّيش .. ومطاحن المعتوهين .. ومجازر المؤامرة على رغيف الناس وأكواخ البائسين ..

لم يُحنِ كلُّ ذلك هامةَ يوسف لحظة، ولم تُحبطه مشاهدُ الخوف وصُوَر العنف المتلاشية على أرصفة الحوانيت، يطل من أوكارها في ركودِ الظلام هذيانُ الخمرة .. وقهقهات الغيبوبة لا أثر فيها لعقلٍ أو ضميرٍ أو وجدان ..

تلُّ الزعتر بكل ترابها، وهوادج تلالها .. وأزقتها كانت ليوسف .. كانت المحلة تضيق بحلم يوسف ومُناه ..

يركض بين أضلع المدينة طويلاً .. بعيداً ..

تلهثُ المسافات .. ويُطوى النهار .. وتبقى عزيمةُ

يوسف شابةَ بنفَسِهِ الطويل الطويل الذي لا ينتهي.. يسكبه في رُحى رئتيه إيمانه الصلب، وعزمه على المضي وحليفه أمل بالوصول، ورجاء بالسداد ورضا الوالدين..

في البيت ملاكاً لا تفتأ أمُّه تعطِّر خدَّيه بأذخُر قُبلاتها الحنونة.. لا تستطيع على فِراقة لحظةَ صبراً .. عِشُّه حجرها .. دَثارُه عطفها، تناجيه وتناغيه وتشرب خمرة جماله بكأس عينيها المسكوبتين أبداً تتصفَّح بهما مزاهي وجهه البشير، فإذا ما أسكره حنانها وداعب طيف الكرى أجفانه وضعته كرهاً وفارقته رغماً، وتبقى ماثلة فوق مضجعه حتى يستفيق..

أحبَّه أبوه لكأنه الإبن البكر، وهو الرابع بعد أخوين له وأخت كبرى..

خصَّه بكثير من الرعاية، وأغدق عليه من عطفه حتى كاد يستثير حفيظة أخوته، ولئن

سألت أبويه عن جنوح عطفهما على يوسف لما وجدا لسؤالك جواباً ولا لعطفهما سبباً، غير تلك الجاذبية المتدلية من صفحة وجهه المشرق، حتى لأنسى أُنس بهائه غِيرة أخوته ليُبادروا بتلقائية الانجذاب بإغداق المحبة عليه وخصّه بأكثر الاهتمام والرعاية ليكون ما كان شاهداً في الأولى وشهيداً في الآخرة.

يوسف النابغة ـ يوسف الشيخ

بين البيت والمدرسة «اللبنانية الحديثة» خطوات.. وما بين الخطوة والخطوة يتربَّص الموت مهدداً حياة العابرين..

وأزيز الرصاص.. ودوي المدافع.. ومناجلُ المنايا بالعشرات بين أكفٍّ عُطاشى الدم والبطش والشغب والدمار وزُمر البغي «لا أمَّ لهم».

من البيت إلى المدرسة.. وفي كل يوم.. ودون مهادنة أو مُماهلة.. يمضي يوسف غير آبهٍ بأذى، ولم يعوّقه عن آماله لائم أو إنذار نذير..

كان أصغرَ أترابه في المدرسة سِنّاً وأكبرهم أُفقاً وغاية.. أكثرهم صمتاً وأسبقهم

نجاحاً وتفوّقاً، لم يحسده منافسوه لجميل طويَّته ولم تُبعده أَلَمعيَّةُ توقُّده عن مزاملةِ ضِعاف رفاقه لكثرة تواضعه..

صديقُ الكبار لجدارته وتوقيره.. وحبيبُ الصغار لعطفه وجميل خُلُقه.. وما أبلغ ما قاله معلموه فيه:

«علَّمنا وعلَّمناه، علَّمنا التواضع والصمت والحكمة، وعلَّمناهُ شيئاً من طوايا الكُتب وتضاعيفها».

في «اللبنانية الحديثة» أنهى علومه الابتدائية وتركها وخلَّف في أرجاء ذاكرتها أسمى معاني الذكريات التي تُفاخر المدرسة غيرها من المدارس، حيث بقي إسمه إلى أمدٍ نجماً مضيئاً في فضاء المدرسة وعلى لوحة الحائط محفوراً إسمه واللقب «يوسف النابغة».

بين المدرسة والبيت تشرَّب يوسف منهجيَّة الرَّشاد، واستقامت في شخصيته مزايا الاتزان وملاحةُ العِشرة..

ولم تفِ المسافة الملتفَّة بين البيت والمدرسة لتسدَّ رَمَق روحه الرانية مجدَ الكمالات..

ولم تُشْبِع رتابةُ يومياته بين السرير والكتاب واحةَ قلبه الملتهب وجْداً لجُرُعات التُّقى ولذَّة الصلاح..

فإذا المسجد مدرسته الكبرى.. والمعلم كتاب الله والناظر والرقيب وأترابه المصلون طلاَّبُ السلوك في الطريق إلى الله..

وبنَهمٍ وهمَّة راح يوسف يَعُبُّ طريق الهدى عبَّاً ويملأ أرجاءَ روحه فيضُ العبادة ومتعة الوصال.. حتى صار المسجدُ البيتَ الأول والملاَذَ الأوفى ليوسف، وصار يوسف للمسجد الشيخَ والأنيس.. والمصلُّون أحبَّته لا تعتريهم معضلةٌ ليس لها يوسفُ الشيخ على رغم حداثته.

وهكذا صار ليوسف مدارسه الثلاث، البيت والمدرسة ومسجد «رأس الدكوانة»..

وهناك تراءت لمحيَّاه روعة الغد الجديد..

راح الشهيد يشُدُّ أواصر إبائه بروافد إرادته.. يتابع أشدَّ حماساً وأصلب بأساً..

يودّع السنة ليستقبل سنةً، كجبل تخمُدُ على أعتاب عنادِهِ عواتي الرياح ينحدر عن قوة ثباته السيل.. ولا يرقى لسمو عزمه طير..

أكمل السنة الثانية من المرحلة المتوسطة لتعصف موجة المُجون برؤوس المفتونين.. وتدور المعارك بين عصابات الضلال.. لا تُبقي ولا تذر تحصد أخضر المدينة ويابسها بلا غدٍ ولا وعد.. وتقطف نعال المتصارعين حياة الحفاة وتُكرع أرصفة الشوارع بشتات المستضعفين.. يتهادى عبق الدم من أشلائهم شاهداً على بصمات المجرمين..

ويخرج يوسف مهاجراً إلى الله ورسوله يتخطى مزق الجثث المترامية في شوارع تل الزعتر.. تُزكم أنفه، وتهز كيانه.. وتُرقِص مفاصله روائح الدم المهراق في جنبات الطريق لجيرانه وبعض أصحابه

نصيب فيه ولعلَّ بين ذويه أيضاً من جُبل دمه هناك.

يمضي يوسف تاركاً المدينة بشبح مجازرها وطنين الرصاص وصرخات الموجوعين المهلوعين ترنُّ في أذنيه.. ولا تبرح مخيّلته نظرات المثقلين بجراحاتهم بين لهف لمنجد وخوف على المصير..

ويوسف نفسه بقدِّه الرَّهيف وعوده الطري، لم توفِّره ضراسة الحرب العمياء برصاصها العشوائي حيث مزَّقت رصاصة حاقدة فكَّه وشفتيه بينما كان يملأ ماءَ للشرب على مسافة من بيته فعاد وفي وعائه دفق دمع وتدفُّق دم.. وبين كفيه أوجاع فكَّيه..

وعيناه عيناه.. لم يمت فيهما الحلم.. ولم يخفت في مجراهما البريق المشعُّ بالآمال.. لا زال يرنو الى البعيد، يركض خلف الشمس.. يقطف بعينيه أشعتها لينسج من جديد بُردة غده الواعد.. ليعودَ إلى الصباح ويعطّر أنفاسه بأنفاسه أليس الصبح بقريب..

وذهب يوسف مغاضباً وكلُّه يقين بأن الله يقدر عليه.. فنادى بصفاء طُره في ظلمات القهر.. أن لا طريق إلاَّ الصبر، ولا ظفر إلاَّ بعزم، وولى وجهه محتسباً أنه بعين الله شطر بيروت الضاحية يُهمهم مسبّحاً، سبحانك لا إله إلاَّ أنت فنجَّيناه من الغم وكذلك نُنجي المؤمنين.

ومن خضم إلى خضم ومن أوج الحرمان هاجر، وإلى بؤرة البؤس يعود..

من رطيب الطفولة إلى ريعان الصبى يجتاح كيانه كابوس الشقاء وشبح الضَّنى.. فأينما ولَّى فثمَّ وجه المعاناة ماثلاً سمجاً يفتت مجامع قلبه النَّضير.

واحتضنت «الشيّاح» على شحوبها قوافل النازحين من براثن المقاصلِ كأنهم وُلدوا من جديد.. وابتلع ليلُ بيروت جموع الرازحين..

وامتدَّت أرصفة الشوارع.. وزوايا الأزقَّة ومداخل المباني الشامخة، فراشاً ترتمي على امتداده بقايا

أبدان هزيلةٍ هزَّها السفر على غير ميعاد، ففرَّت عيونها من روع الليل وغفت بين لعلَّ وعسى..

وأخذ يوسفَ أخوتُه إلى جُبّ غرفةٍ واحدةٍ تقطنها الأسرة بأجمعها فلا مكان ليرتع ولا مجال ليلعب، فيأكله ذئب الغربة والوحشة أو تدوسه حوافر سيَّارة الخفافيش ويكونوا به من الزاهدين..

وعلى باب الغرفة الجُبّ.. وعند أول صباح من أصباح المرتع الجديد .. استفاق يوسف، يبحث عن عروسه الشمس، وعاد نافضاً جوى الأسى من باله ليستقبل موكب الأشعة من جديد.. فبُردة غده لمّا يحيكها بعد، ولات حين ركون..

وأخذت عينا الفتى إبن الثالثة عشر من العمر تجولان أزقَّة الشيَّاح الضيّقة تبحثان عن بيدر النهية ودوحة الفؤاد، فالمدرسة ريّ نهيته وفكره، والمسجد نشوةُ روحه وقلبه.

ويوسف في الشياح، يوسف في تلّ الزعتر..

في المدرسة النابغة، وفي المسجد الشيخ، وفضاء الجامع يُطرب بأنين تبتُّل يوسف ومناجاته وتقلبه في الساجدين، وتراتيل الآيات بشجى صوته الرَّحيم مصباحاً التفت على خيوط ضوئه فتية الحي مأسورة بسحر معشره، وجميل شكيمته ليصبح معلّم الصبية وهو أحدهم.. وإسماً مأنوساً إذا ما تهادى لأذنٍ خفَّتْ توّاقةً لتكحِّل عينيها بمرآه الوديع..

بين أخوته موضع الثقة ومودع الأسرار.. كتوماً بقدر مرحه وخفَّة دمه.. رفيقه الأوفى صمته «ما قلَّ ودلَّ» حكمته في الحياة وشعاره العريض.. موهوباً ليس له ندٌ ولا بغيض.. شفوقاً ودمعه طوع قلبه كلما رقَّ فاض، أعاقت طريقه رهافة حسه حتى ليؤثر بحقّه لغير مستحقه..

كذَّبته مرة حسداً واستغبَتُه ببهتانٍ جلَّ عنه وليس فيه، فبادرني بسماحته وإشراقة مبسمه مستعفياً وكأنه محقوق، فشلَّ فيَّ كلَّ جارحة وجانحة،

وأغرقني في غيضة خجل لا زلت أبتلع ذاتي إذا ما تمثَّل في ذاكرتي ليتني «أعدمتُها».

وتجاسر عليه أحدهم بشيء من التجريح والأذى، فقابله بهدوئه الأخَّاذ قائلاً: «لو كان فيَّ ما ذكرت نسأل الله الهداية، والاستقامة، ولو لم يكن فيَّ ما تقول نسأل الله السَّداد والرضا»، وذاب السَّاخر في مطاوي كرسيه مبهوتاً مأخوذاً بتلك المقدرة ليوسف على العفو والصَّفح.

وهكذا كان دأبه فيما يعتريه كابحاً جماحه كاظماً غيظه يوسفيّ العفَّة والسماح والصبر والجميل..

شمعة الليل وشمس النهار

أمَّا الليل فمن يقدر على قيام يوسف صافاً قدميه، تالياً لأجزاء القرآن يرتّله ترتيلاً.. يُحزن به نفسه ويستثير به دواء دائه.. فإذا مرَّ بآية فيها تشويق رَكَن إليها طمعاً وتطلَّعت اليها نفسه شوقاً.. وإذا مرَّ بآيةٍ فيها تخويف أصغى إليها مسامع قلبه وظنَّ أنَّ زفير جهنَّم وشهيقها في أصول أذنيه.

وعيناه سابحتان بجُمانات الابتهال.. وأنَّات شجيَّات تُصعدها نفسه الولهى.. تتلمَّظ جذبةَ نورانية يخترق بها حجب النور لتتقلب في معدن العظمة.. وتتعلق روحه بعز القدس.. مصعوقة بإنصباب النور.. نوراً على نور..

أما النهار فحُلُمٌ وعلم.. استحوذ طلب العلم على

مجامع فكره ليأخذ القسط الأكبر من اهتماماته وأولوياته.. فالتحق في الجامعة العربية يشدُّه إليها رفد كبريائه المحمود الذي غذَّاه فيه ابرامه لقسمه على المُضي والقفز «فوق العقبات» التي تُلويه عن سمت الصراط القويم.

وعلى أعتاب السنة الأولى في الجامعة وفي أوائل أيام الدراسة، يصطدم يوسف بهجر المعلم وهو يتطاول على مقدسات الدين، من غير رعاية لمشاعر الطلبة ويطعن بالاسلام بلا هوادة أو تؤدة أو موضوعية..

ويوسف أبو القلب الملتهب بالفناء للدين، وصاحب النفس الهيمانة حتى لم يعُد يسمع ولا يرى إلاَّ الله قبل وبعد ومع كل ذرَّات الوجود..

ويهبُّ بكل حميَّة واستعزاز ليدحض طعن المعلّم في دينه سوءاً، حامداً الله مثنياً على نبيه ﷺ.. مستعرضاً بكل رصانة وحزم ردّه الممنهج فإذا السكوت سيّد القاعة إلاَّ صوت يوسف

الهادىء.. وأفواه الحاضرين فاغرة.. وعيونهم جاحظة وآذانهم مُشنفة تكاد لا تصدق أن هذا يوسف، الصامت.. يوسف الخجول الوجل.. يختزن كلَّ هذه القدرة والغيرة والشجاعة والبلاغة والبأس والحزم.. لم يستعملها مرةً لرياء أو مراء، ويُلكَمُ المعلّم في فيه لقوة البرهان في حديث يوسف وحضور الحجة في بديهته.. وأخذ الشيطان بحلُم المعلِّم ليعمل على إحْراجه ومن ثم إخراجه كلَّما وجد لذلك طريقاً، ليستعيد بذلك شيئاً من ماء وجهه..

وهذا دأب الضعاف من البشر مهما كان شأنهم «إذا ما حُشروا خدشوا».

ويتقلَّب يوسف بين مجالات العلوم كلِّها ورأس ماله وضوح رؤيته.. وبصيرته بصوابية الطريق.. وجموحه البالغ أقصى القوم..

ويدخل «المهنيَّة العاملية» التي أثقلت كاهله مستلزمات الدراسة فيها في ظلّ الأوضاع المعيشية المتردية.. ما أجبره على العمل في إحدى المؤسسات

ليستعين بذلك على رفع عوزه ومزاولة دراسته.. ولم يمضِ شهران على عمله حتى يستأنف مُستكفاً، أقرفه سوء خُلق القيِّم على العمل وساءه بذاءة لسانه وخفَّة عقله وسبابه الذي يطال فيه الله ورسوله وأولياءه.. فنصح وأنذر ثم أدبر وقفل غير نادم ولا يائس من تيسير أمره وتدبير حاله طالما أن ذلك بعين الله وفي سبيل مرضاته..

ويبادره إخوته بسيل استفهامات حول تركه لعمله وليس على شفتيه إلاَّ قول الله تعالى ﴿ومن يتَّقِ الله يجعل له مخرجاً﴾.

ويأذن الله بمخرج ليوسف، لينتشل نجاحه من فم القهر ويحوز على شهادة T.S كهرباء، ولم يهدأ باله وينام على أذنيه بل ظلَّ منتصب الهامة كأنه مُقبل على خوض خضم هائل مردداً في محضر أصدقائه «الآن وقد وضعت الخطوة على الطريق، بدأ العمل واحتدم الصراع وصخب الحياة، فالشهادة بداية الطريق الى الشهادة».

ويعني بالأولى شهادة المدرسة وبالثانية القتل في سبيل الله.

حياة يوسف أحجيات أخفق زملاؤه في حلها، فهدأة طلعته ولُطف معشره.. وخفَّة نجمه لرهافته حتى ليظن الناظر اليه أنه مريض أو خُولط.. فإذا ما كشفت الأيام لثام رحمته بين إخوانه برزت معالم الشدَّة والعنفوان والبأس مرسومة بحدٍّ حاجبيه، إذا ما احتدمت أوزار الحرب.. انبرى أسداً كراراً لا يعرف للوهن والونى طعماً.

وإذا يوسف الرقيق.. يوسف الأرعن.. يوسف الذابل الرطيب، كادر من كوادر العمل الرسالي المقاوم.. ومجاهد في شتى ميادين الجهاد والعطاء.. خضع لعدة دورات عسكرية كان أوَّلها بإيعاز من السيد المغيَّب الامام موسى الصدر رضوان اللّه عليه حينما دعى إلى الالتحاق بالدورات العسكرية في صفوف المؤمنين، ويتفوَّق في أكثر الدورات التي خاضها، حائزاً على جوائز تقدير

وإكبار من مدرِّبيه رغم أنه كان الأصغر بين عناصر الدورة وأفرادها..

هذا ولم يخطر ببال أحد أنَّ في يوسف كل هذه الهمَّة والاستعداد، ولم يُصدِّق أحد أن هذا الوجه الغافي يُخفي تلك المزايا من الشدة والرجولة والشهامة.

أما النهار.. فنهار يوسف كما المسافات في تل الزعتر أقصر من أن يتَّسع لمطامحه وآماله... وأضيق من أن يطال امتداد يديه ونشاطه المتواصل حتى كان يستعين بقسط من الليل ليجبر المتراكم من أعمال النهار..

فالكشافة الاسلامية واكبها ليصبح القائد.

والمسجد ارتاده ليصبح الشيخ والمؤذن ومعلم القرآن فيه.

والنادي الاسلامي للشباب المؤمن حلَّ فيه فرداً ليتربع بين أفراده علماً.. ورمزاً..

وحينما استعَرَتْ نار الحرب الداخلية، كان

يوسف الهيِّن في عيون من عرفه.. أعلم المتطوعين للقتال بفنون الحرب.. وأكثرهم براعة وخفَّة في استعمال كل أنواع الأسلحة المتاحة آنذاك..

وكان أول من يتقدَّم في سُوح العراك وآخر من يعود من هناك، وإذا ما عاد عادت اليه رهافته وهدوءه وذبوله وخجله المتورِّد على انبساط خدَّيه..

ولست أبالغ إن قلت أن يوسف أحجية ولغز يصعب فكه والوصول إليه.. وكتاب حياته ليس لأحد طريق لتهجئة حروفه النورانيَّة.. إلاَّ من استرق السمع وأرهف الحس.. فإن بين الله والصادقين من عباده سراً لا يلج سدرته إلاَّ الراسخون في الكشف والعرفان وحكاية المعراج..

وفي العام ١٩٨٢م..

وفي ليل لم يُولج في نهار.. وعلى حين رقدة المتعبين من سبح نهار طويل.. هزَّ الرعب مهاجع الراقدين.. ومزَّق الهول عذوبة الاستسلام لدوحة

الأحلام.. واجتاح الذُّعر أسِرَّة الأطفال ليترك شظايا الحقد أثداء في أفواههم الطريَّة يرتضعون بها دماء جراحهم السَّاخنة وتُدنَّسُ الأرض بهَوَج عدوّها.. وتطأ الأرجل النجسة ترابها المقدَّسة..

ويعثو اليهود بنو الشيطان بين الأهالي فساداً دون حسيب أو رقيب، ويفترشوا باجتياحهم سمج اكراشهم المزعجة على مرابع الجنوب، مرتمية بهيكلها المريع على كاهل الجنوبيين.

يغير على حُرُمات القرى أسراً.. وقتلاً.. واغتصاباً ليترك خلفه ظلام الوجوم مخيّمة على ساحات القرى.. تلحق بقوافله صبية الضيعة بحجارها ومناقفها.. وتتبعها النسوة بمدامعها ومناديلها نادبة شاحبة تكيل لهم لعنات الأرض وغضب السماء: «لا أبقى الله لهم ديَّاراً».

ويذيع الاجتياح وحكاياه الأليمة وفصول الإذلال والقمع في أرجاء لبنان ومسامع الناس أجمعين ليُخلف في الكثير منهم

استسلاماً وخضوعاً قد أخمدت نشرات الأخبار المشوَّشة في نفوسهم كلَّ أملٍ ورجاء بغدٍ أو مستقبل عزيز..

ويوسف يخفُّ في طليعة من يستقبل النازحين ليشحذ من أفواههم أخبار ما ومن خلَّفوا من تعسُّفات ودمار.. يتحرَّى بلهف أخبار الأرض والعرض والتَّبغ والتين والزيتون والدحنون.. وقبات المآذن ورضاب المحاريب التي طالما امتهى من جوفها رزقاً من عند الله..

ويُشعل الثأر أحشاء جواه.. وتثير صُوَر المأساة لواعج أشجانه الدفينة.. فهو العليم بمذاق البؤس.. وهو الخبير باختناق الدمعة في كُتل الأجساد المذبَّحة على مرافق الأزقَّة..

فلم ينسى بعدُ تلَّ الزعتر.. ووجعه فيها.. ولا زال شريط ذاكرته يضخُّ محموماً لا يطيب ولا يغيب...

ويوسف الصبي الفتى في تل الزعتر غير يوسف الفتى في بيروت الضاحية، فقد صنعت السنوات

السبع منه الرجل الأبي الواثق الخبير الثابت الرصين مستعصماً بتواضعه الفريد..

وفي الضاحية الجنوبية.. وبعدما غفت ضمائر الكثيرين قبل عودتهم وحجّوا إلى جحورهم هرباً من وحشة الظلام..

وينسلُّ مع سدول الظلام فتية أرَّق عيونَهم صحوةُ ضميرهم وأشعل كيانَهم صونُ كراماتهم وعزَّة أهلهم.. فنفروا خِفافاً ومضوا ثقالاً.. ودعاء كميل شُحنة أرواحهم.. ووعد الله بإحدى الحسنيين وقود هممهم واندفاعهم ليبتُروا اليد التي شوَّهت صورة الانسانية وكرامة الانسان..

وكانت خلدة عرس البدايات والزفاف الكبير لمواكب الأحرار وغرسة الدم الأوَّل في صناعة الفجريات..

وعلى دروبها هناك شَتَلَت المقاومة ما يزيد عن المئة شهيد.. وهناك استوقدت منارات أولِ دمٍ في طريق المقاومة..

ومن هناك كانت بداية السفر المقاوم وهاجر جنوباً رغم المخاطر.. توغَّل جنوباً رغم الصّعاب.. فهناك يكون أقرب إلى الصبح وأقرب إلى الشمس.. وهناك سوف يُكمل بُرْدَةَ غدِهِ الواعدِ من خيوطِ الفجر.. وأنفاس الصباح.. وأشعة الشمس التي لن تغيب، فيوسف يبعث فيها فيضَ الضياء..

مُعلّمي وشيخي يوسف

كنت في العاشرة من عمري.. فتىً أرعناً.. لا تُمثّل الحياةُ عندي سوى مجموعة «دُحَل» وكُرةٍ صغيرةٍ.. وعصا محفورة من غير احترافٍ ألهو بها بلعبة «العصفورة» وبعضُ صلاةٍ إذا ما أعلن المؤذن بداية الظلام لأعود إلى البيت مكلَّلاً بخيبة الأسى لاضمحلال النهار.. وفسحةُ أملٍ لانتظار يومٍ جديد..

ويمضي صيف كل سنةٍ في الضيعة ورصيدي من الحياة كلها هو هذه المجموعة من عناصر التصَّابي والتلهّي، وأقصى ما كنتُ أفقهه في حياتي آنذاك رضا المعلّم واجتهاداً في درسي وصيفاً ممتعاً كلَّ عام..

حتى كان يوم.. دعاني أحد صِبية الضيعة

لألعبَ معهم بالكرة في حيّ من أحياء كفرصير، فقبلت ممتنّاً وسارعت مسروراً وهناك التقيتُه.. كاد وجهي يلامس وجهه.. رَكَلَ أحدُهم الكرة بعيداً.. وأخذت أشُدُّ مسرعاً بكل عزمي.. فارتطمت به شامخاً.. هادئاً رزيناً.. واعترضني مُلاطفاً.. ليحول بيني وبين الكرة.. فإذا اتخذت ذات الشمال مال معي، وإذا قصدتُ اليمين يمنعُ اجتيازي.. والضحكة ملء فمه.. قد فاجأه ما أوحته ملامحي وأنا ألحقُ بالكرة بإصرار واهتمام وكأنَّ الكرة كرةُ الأرض..

أوقفني بكل لُطف، وأنا أتعجَّلُ الخلاصَ من قبضةِ يديه.. أمَّا هو.. انحنى على ركبتيه ليمسح بوداعة مداعباً شعري سائلاً:

ـ ما اسمك يا أخي؟

وأضاءت مسحة كفيه بين أضلعي ثقةَ واطمئناناً... وكأنه مسح على رأسي بكفَّيْ عيسى ابن مريم عليه السلام.

وقوله يا أخي.. وأنا أنا، قد ألهبَني اعتزازاً، وصبَّ في مفارقي ما أيقظ فيَّ كلَّ عِرقٍ ونبض، حتى

لَشَعرتُ بنفسي غيرَ نفسي.. فخلفي رفاقُ صباي.. وبسطٌ وكيفٌ وسذاجةٌ بلا جدّ ولا جدوى..

وأمامي غدٌ مشرقٌ.. وقاربٌ أمانٍ قرأته بوجه يوسف من خلف نظّارته، ومن زمَّة شفتيه وهما ترتّلان الانقلاب المقدَّس لمسار حياتي، «ما اسمك يا أخي»، ورعشةُ الحُنُوّ من رأفة راحتيه تمسحان فروةَ رأسي تَرَكَتْ فيَّ تيقُّظاً ممتعاً أستَحضره كلما اعترى نفسي قلقٌ أو اضطراب.

نسيتُ نفسي والكرة وحاكورة الملعب واللاعبين.. وأنا أمام سحر طلعته الشامخة.. وغفوتُ أحلمُ بين يديه أنّي أطير معه.. ونسمو معاً فوق مشامخ الجبال حيثُ تعجزُ الصقور عن بلوغ عليائنا ورحت أرخي عنان أحلامي وكأنني أمام فانوسٍ سحريٍّعلى كل شيءٍ قدير..

واعترض شرودي نَغَمُ صوته:

ـ ها.. ما اسمك يا أخي.. أينَ سَرَحت؟

ـ عفواً.. محمد..

ـ لماذا لا تبقى في المسجد بعد الصلاةِ يا محمد؟

وشعرت بخَفق الفرحة في قلبي وانفرجت أسارير وجهي طرباً فإنه يعلم أني أصلّي ويراني في المسجد ويعرفني.. ولا تسأل عن غِبطةِ الصغار عندما يُعيرهم الكبار اهتماماً وثِقةً..

ـ ولِمَ أبقى بعد الصلاة؟

ـ لتنضمَّ معنا في حلقات ترتيل القرآن..

ـ حقاً؟ لم يُخبرني بها أحد..

ـ ها أنا أدعوكَ يا أخ محمد للانضمام إلينا منذُ مساء اليوم على الرَّحب والسعة..

ـ بكل سرور.. حتماً.. أكيداً.. إن شاء الله، سوف آتي قبلَ الآذان..

ومَضَت الساعات ثقيلة، عمراً بأكمله، دهراً مملاً وئيداً أترقَّب الغروب لحظة، حتى أني أصبحتُ أعشق إضمحلال النهار، وساعة الغروب.. فإنها ومنذ اليوم موعدٌ لأحلى لقاء، لقاء الأنس بربيع القرآن.. وتباشير المعلم.. ورخامة نَغمته بتراتيل الآيات في جوٍّ روحي

مقدَّس نتداور فيه باقاتٍ من الآيات كلٌ بدورهِ يُقوِّمُ لحنَ قراءتنا مُعلّمنا الحبيب ـ في معشر تَحفُّه الملائكة وتباركُه صلوات الجالسين.. فُلكُ نجاةٍ رُبَّانه يوسف.. نخرجُ بعدها وأطايب آثاره ملحوظة في سلوكنا المتزن بين أهلنا وذوينا.. أدباً وطاعةَ وعفةَ وزُهداً بكل شيءٍ إلاَّ مزيداً من رضا الله والمعلم الاستاذ الشيخ يوسف عليه وعلى نفسه الشريفة ألفُ سلام ورضوان..

وعلى بساط كفَّيه أدركتُ الصراط وسلكتُ فيه.

وتوجيهاته أضواء الطريق إلى الله..

وهامته الحاضرةُ في سَفره رادعنا عن مغبَّة الشُّرود عن الاستقامة في المسير..

وبدأتْ أسفارُ يوسف وغيباته تطولُ، وفي كلِّ مرَّةٍ يعود فيها أشدَّ إشراقاً وأضوأ بهاءً.. نطوف حوله إذا ما عاد، نتشرَّف بلَهفٍ وشغف أُنس المجلس وروعة الحديث لا يُعكّر صفو عرسنا سوى خوفنا أن ينفضَّ وينتهي ونعودُ للانتظار..

يغيب يوسف وخلفه دمع أمّه ودعاؤها..

ولَهفُ الانتظار حتى يعود.. وتلحُّ عليه كلَّما عاد أن يبحث عن «ابنة الحلال» فإنها ترغب برؤيته عريساً قبل أن تباغتها المنية، وما كان جواب يوسف في كل مرة إلاَّ قوله «العرش ثم النقش» «والدارُ قبل العروس».

ولُبنَةَ لُبنة، بعناءٍ وضنك، بعرقٍ وكدح، تمكَّن يوسف إلى كل انشغالاته من بناء بيته وعش زواجه ويقصد بعدها لاختيار «ابنة الحلال» التي ترفُّ لها نفسه..

وكما في كل مرةٍ يحالفُ التسديد يوسف ويعينه على الدهر ويخفف عنه صعوبة المسير فيه، فآخته على المضي وكانت عضده في كل ملمَّة ونازلة.

ويضمُّ البيت المطهّر ثُنائياً ملائكياً لطالما أشارت إليه أصابع الجيرة كلٌّها بين حاسدٍ وغابط لتلك المودَّة والرحمة والسكن الذي تجلَّت أطايبه في خلجات البيت وفضائه، تهبط ملائكة الرحمن في حوضه وروضه لما يملأ أجواءه من عَبَق القرآن وأريج إنشادِهِ صباحاً ومساءً ولَبيتٌ يُقرأ فيه القرآن تسكُنهُ الملائكة مستغفرة لأصحابه.

وهكذا كان بيت يوسف، عُشّاً طيّباً، روحاً وريحاناً قرَّت به عينهُ واستبشر بالقرارة والرّضا وأيامٍ بلا إيلامٍ علَّهُ يُعوِّض عن ماضيه الكئيب.

ومع احتدام النار على خطوط المواجهة مع العدو الغاصب ومع غليان الجبهات برُحى الهشيم صار يزداد غيابُ يوسف.. وإن عاد فمنهمكاً يعود.. مثخناً بأورام عملهِ الدؤوب.. فيستسلم طلباً لقيلولة نومٍ وقسطاً من الراحة والسكينة وتخفُّ زوجة يوسف ببسمتها المحبَّبة إليه وبشاشتها التي تُزيح عنه وعثاء الغياب، وتستقبله بتحية المحبّين وفرحة اللقاء بعد انتظار طويل، وكوب لبنٍ مخيضٍ باردٍ يلتقطُ به لمظَ المسير، وتُبادره «الحمد لله على السلامة».

ويروق ليوسفَ هذا الاستقبال البهيَّ ويُمنِّي النَّفس بساعاتٍ أطول يقضيها في حنايا بيتِه مع زوجته.. ولكن هيهات لذلك القلب الكبير الذي يُضمر فيه كلَّ ذلك الأسى..

ولتلك النَّفس المطمئنة التي اتَّسعت لجراح المعذَّبين على امتداد الوطن والأرض.

أنَّى ليوسف الذائب في الإسلام، الواهبُ حياته فداءَ لترابِ أرضه وأهلها، أنى له أن يستريح ومن أينَ لبالِهِ أن يستقرَّ وعلى تلال جُنوبهِ وحوشٌ وكوابيس، وفي وديان القرى تنتشرُ القذائف بالعشرات بعشواءٍ وهمجيَّة مشوهةَ وجه التُّراب الأخضر قاصفة مشاتل الخير والجمال، وفي كل بيت ترك اليهود أثر جريمةٍ، وعلى كل بابٍ خلَّفوا لوعةَ تُومي أنَّهم مرُّوا من هنا..

ما يوسفُ الذي يشغلُهُ بيته الصغير مع زوجته، عن بيته الكبير الذي يرزح تحت كاهل الاحتلال، فآثر البيتَ الكبير وأولاه حياته ووهبه وجوده وكيانه، مستسمحاً زوجته مصبِّراً قلبها مُثبِّتاً جأشها لأنه ما بها يضنُّ لكنَّه الاسلام أخذ منه كلَّ مأخذ.. وهدَّأ روعها بوعد الله. ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استُضعفوا في ارلأض..﴾ وتُسلّيها كلماته ويعزّيها وعده لها بانتظار الصبح، فالصبح آتٍ وكلُّ آتٍ قريب.

صدور الأحرار قبور الأسرار

وتعاونوا على قضاء حوائجكم بالسر والكتمان.. ذلك كان شعار يوسف في عمله المقاوم، وفي أكثر الشؤون الحسَّاسة التي تُوكل إليه.. حتى البيت الذي ليس فيه إلاَّ زوجته لم يترك فيه مرةَ ورقةَ أو مقصوصةَ تدلُّ على طبيعة عمله.

لم ينسَ.. ولم يسهُ ولم يخلِّ بعمل قط..

متنبِّهٌ، حتى أنه سافر يوماً في دورة عسكرية تخصّصيَّة مدةَ طويلة دون أن يعلم به حتى أهله والمقرَّبون منه، حتى أنا الذي لازمتُ دورته وزاملت أفرادها يوماً بيوم، لم أرَ له وجهاً، ولم أسمع له حِسَّاً، ولم أقرأ له إسماً... فإذا به الرَّقم الفاعل والوجه البارز بين أفراد الدورة لشدٍّ ما كان بارعاً في التكتم والتخفي..

أثيراً لا يترك لخطواته أثراً.. تُزعجه بهارج الأضواء، ويؤذيه العمل في العَلَن، حتى أني لم أعلم أنه كان يومذاك هناك إلاَّ بعد استشهاده بأيامٍ وبالصدفة، وكنت لأذهلُ لولا أني علمت بعدها بأنيٍ لم أكن الأول ممَّن صَدَمهم يوسف بروحيَّته الجبَّارة، فحتى زوجته وشريكة حياته، كان يتصل بها من هناك على أنه في افريقيا فإذا ما طلبت منه رقم الهاتف لتتصل به عند الضرورة، أدار دفَّة الحديث أو قطع الخطَّ ليترك زوجته صابَّة جام غضبها على شبكة الخطوط والهاتف.

كان يرسل لها الرسالة من هناك مرفقة بعنوان مبتذلٍ وحروفٍ لاتينيَّة مبعثرة على أنه العنوان الذي هو عليه..

وتتلقَّف الزوجة رسائله تلتهم حروفها التهاماً، وتقرؤها مراتٍ ومرَّات، مازجةً حِبرَ حروفها بجُمان دمعها، وتبقى الرسالة بين يديها شاهدة على الحنين لعودة الحبيب.

وتخطُّ الرسالةَ «الجوابَ».. رسالةَ بعد رسالة مرفقةَ بنفس العنوان المصطنع وتُرسلها بالبريد مرةَ وبواسطة صديق لزوجها أخرى..

فأين كانت تحطّ الرسالة رحالها؟ وأي أثير يقلُّها أو ثرى؟ وحده يوسف يعرف الطريق، أوَلَيس هو من صاغ العنوان الموهوم؟

ويعود من هناك وكأنه عائدٌ من رحلة استجمام ونقاهة، ولم تستطع شهور الوعر والسهر والمسير الطويل فوق رمال الفيافي وخوار القوى على مقاصعِ الجبال، وإزهاق الفكر، بمناهج الدراسة والغرق في التركيز والبحث والتدارس بأرقى مستويات العمل الاداري والتنظيمي والعسكري، كلُّ ذلك لم يترك في ملامحه أثراَ وكأنَّ شيئاَ لم يكن..

عادَ وقِبلَةُ قَلبِهِ قُبلَةٌ ينشرها على يد أمه الرؤوم، هي أوَّل ما يقومَ به كلَّما عاد من غيابٍ طال أو قَصُر..

وعلى باب قبلة روحه وريحانة قلبه تقف

زوجته والبسمة والبشاشة وتحيَّة المحبين وفرحة اللقاء بعد انتظارٍ مرير لا زالت على وجهها المستبشر بعودة الحبيب، وبصوتها المتحشرج بين بكاء الفرحة وتزاحم الكلمات، تخرجُ التحيَّة حيية «الحمد لله على السلامة» ويهجع في بيته أياماً معدودات ينفضُ فيها وعثاء غيابه مستعيداً نبض اليأس في عروقه، غاسلاً مرارة الشحوب والترقُّب عن وجه زوجته بعذوبة توقيره لمحضرها واعترافه بجميل ثباتها وبما تؤازره به لتحقيق غاياته وأمنياته.

ويأذن الله ليوسف بولي عهد يحمل مزايا الأب وملامحه المحبَّبة ويتشرَّب يوسف الصغير مكارم اليُمن من وجه أبيه ليصبح مرآة ماضيه التي تعكس له صورة الغابر من أيام صباه.

وتقرُّ عين يوسف بمولوده الميمون «محمد الباقر» وحامل اسمه المأنوس، ويشتعل الشوق للعودة إليه كلَّما غاب..

وقلبه العنيد الذي لم يُفطّر نياطه نائبةٌ ولا

خَطب، بدأ يلتهب توَّاقاً كلما تراءى لمخيّلته وجه وليده البهيّ.

ويبلغ سيلُ الغضب ربى الانتفاض.. ويطفح قلب يوسف بأوجاع المستضعفين.. ويغلي الدمُ الحرُّ في عروقه الأبيَّة ليرشح بغيث عزم مستعر يُنسيه نفسه وأهله وولده.. إنهزام المواسم، وانحناء الزيتون وهجعة السنابل على حمائل التُّراب، وسجود الجدران على أعقابها يعصفُ القصف الحاقد الحاصد ديار الفلاَّحين وأهلها وأعشاشها وبلابلها المبحوحة.. ودواجنها وحساسينها التي حزَّ صوتها سكون الموت، وقَطَفَ شدوَ بلابلها تلمُّظ الأرض التي ذَوَتْ أثلامها تتشوَّق لحنوِّ السواعد السُّمر.. ولحن الجداول الرقراق..

السَّفر الأخير

وعند الصباح.. ومع مشرق الشمس.. يقف يوسف على عتبة البيت، عينٌ على رُقيَّة، وعين على محمد.. وعلى شفتيه بسمةٌ صفراء يحاول رسمها ليُخفي دمعه المتدلي على خدَّيه، وتجول رُقيَّة بعينيها تتصفَّح وجه يوسف وتُحطّ بنظراتها على مكاحل عينيه، وينفُض قلبها لمرأى الدَّمع خيوطاً تلطُم صفحة وجنتيه.. ويُقلقُها وقوفه الطويل وكأنه يتزوَّد بوداعهم لسفر بعيد.. وتحاول الهربَ من نفسها وحدسها باسمةَ:

ـ رافقتك السلامة.. في أمان الله.

ـ أتتعجَّلين الفراق..

ـ معاذ الله.. ما أحبّ إليَّ من بقائك بجنبنا من غير سَفَر..

ـ والعمل؟

ـ أيّ عَمل؟

ـ عملي..

ـ آن الأوان لأسألك.. ولأوَّل مرة عن طبيعة عملك وشغلك..

ـ آخ!! لو تعلمين.. سأخبرك علَّك تستطيعن معي صبراً: فأنا وسلاحي وكفاحي وجعبتي زاد التوكل والتسليم أجمع خيوط الفجر من حبَّات الظلام وأعجنها بأنفاس الصباح وأركض خلف الشمس ألتقط أشعَّتها.. لأصنع بُردة الغد النَّدي..

ـ وحدك.. لكل ذلك؟

ـ معي الخمّص.. الذُّبل.. الصُّفر.. الحُدّب.. العُمش من الموقنين..

ـ ليتني أدرك العوم في لغة اليقين.. ليتني أبلغ لُباب جوهرك الدفين..

ـ لكنَّك على خير..

ـ رافقتك السلامة.. وذلك أهون لوهني..

ـ سلامة من؟

ـ سلامتك أنت، وليس أغلى على نفسي من سلامتك..

ـ سلامتي من سلامة الاسلام والأرض.. والعرض والكرامة وعزة المسلمين.. وبعدها لا أُبالي وقعتُ على الموت أم وقَعَ الموتُ عليَّ لا نلبثُ أن نُسقى بكأسٍ لا نظمأ بعدها أبداً..

ـ ليس ليمّك شاطىء، وليس لقاربي شراع.. امض قرير العين برعاية الله، فعهدي أن أهتدي يوماً إليك..

واتَّسعت بسمته وضحك راضياً.. وأومأ مُسلّماً وراح يلفّ خلفه الطريق..

كشف اللثام..

وإلى هناك حيث ينتظر الأصحاب.. إلى آخر المطاف، عند ارجوان المغيب.. وعلى كتفيه بُقجة الحوائج.. ومناجاةٌ.. وتوسلٌ وعتابٌ حمَّله أمانَة نقله قلبُه المخضّرم وصدره المشحون.

وفي راحتيه غَفت الأماني ملء جفنيها قريرةَ يُداعب بأطرافها سُبحة الصلاة..

أحرق وراءه كلَّ ما يدلُّ عليه.. إلاَّ ينابيع المودَّة له في قلوب الناس واحتفظ بدفتر أسفاره الطويلة البعيدة.. من الناس الى الله ومن الله إلى الله.. ومن الله إلى الناس.. ليُسطّر فيه آخر أسفاره، عندما تُشرق الشمس ويُكمِل بُردة العهد، ويختم مسك أسفاره من الناس إلى الله..

وعلى مشارف الملتقى.. وعلى خطوات من

موضع اللقاء، وضعَ لِثامه على وجهه لا يبرز منه سوى توهُّج عينيه..

ومع الغروب يلتئم شمل القافلة المسافرة على متن الشهادة.. ويحوم المسافرونَ حول ربَّانهم وهو يُشعل مصابيح العرس هناك حيث ستحطُّ الجراح أثقالها.. ويأخذ يوسف الدليل بُردته التي حاكتها يداه يزهو بها متمطياً إلى جوقة العرس.. ومحفة الفوز ومقصورات الخيام..

ويحمل الليل حيادِرة الجبل الى عرائنهم ليُلبسوا الظلام أبدانهم ويستسلموا لقسط من النوم والركون..

ويوسف كما في كلّ ليل.. على موعد مع خليلة روحه ومعشوقة فؤاده.. وهيفاء رُؤاه، وقُرَّة عينه نافلة الليل وخمرة الوصال..

وعلى مَحَفَّةِ الفجر خرج يوسف من خيمته ليتوضَّأ لصلاة الليل، ويُفضح وجهه بخيط الفجر الكاذب أمام حرس الخيمة، ويُبهت الحارس، بمرأى يوسف.. وهنا بالذات.. فيوسف في الضيعة.. خجول.. وديع.. لا باع له بالمقاومة والجهاد..

وصرخ مبهوتاً:

مَن.. يوسف أنَّك لأنت يوسف؟

أنت الملثَّم؟ أنت الجندي المجهول فينا؟

وحديثُ المجاهدين وتعشُّقهم لمرأى وجهه..

أكادُ يُغشى عليَّ.. لك أنت كان ذلك المجد؟

لك أنت كلُّ ذلك الوجد؟

يا لقلبك الكبير، لكم أتينا على ذكرك بالجبن والقعود في القرية وأنت هنا بيننا!! ولكم زهونا أمامك مرحاً لنُفاخر بأنفسنا عليك، وأنت في الوغى بلثامك حِصنُنا..

أيُّ نَفسٍ تعتصم بحصنها؟

أيُّ صدرٍ تتَّقي بسُورهِ تجاسُرنا عليك؟

أيُّ مدى صبرُك على إخفاء فضائلك؟

وأيُّ فضاءٍ حلمُك الذي عفوتَ به عن مبغضيك؟

وأبليت حسناً بروافده في إبراء مُشاكسيك.

أأفرح بكشفي لثام نفسي وترفُّعي عليك؟

أم أفرح بكشفي لثام وجهك وتعرّفي عليك؟

الآن حَصحَصَ الحقّ، واصرِف عنا صَفحاً، واغفر كبوتنا يا يوسف..

قد قزَّمَتَنا بشموخك..

رأفة بضعفنا..

رفقاً بوهننا..

هاك يدُنا.. خذنا إليك، فقد أضعناك بين جميل تواضُعك وجمالِ الكبرياء فيك.. فعسانا ولعلَّك..

ووجهاً لوجه ولأوَّل مرَّة يؤدي فيها يوسف جهاده من غير لثام، وأسكنه عهدُ من معه على كتمان سرّه وإخفاء أمره، فإنه قضى هذا العمر من الجهاد والعمل من البلوغ إلى العبور، ولم يُخالط قلبه رياءٌ، ولم تُحدّثه نفسه بعُجْب.

وفاض الدم على ضفاف الجراح..

ومع خيوط الفجر الأولى مشى الأبرار في الطريق إلى «الدَّبشة» وفي أكفِّهم حباتُ الظَّلام وجدائل الصباح.. (خمسة أبطال أقمار) ركضوا خلف الشمس ليقطفُوا أشعَّتها.. ومن جنبات الطريق لملموا قطر النَّدى من الورد ليُزركشوا بها بُردة الغد..

وبين شِعاب الدَّبشة وصخورها، ومن بين أوكار الأفاعي وحجورها، يلفظ الشيطان شهابه المسموم، ويُدلع ألسنة غيظه المخزون..

ويوسف مُيمّم نحو التل عنيداً..

وفي صدره تغيبُ مسامير الزُّعاف لتحُزَّ وريده..

لطالما شربت من صبّه جلال الروابي..

وتبسَّمت في يوسف شفاه جراحه عن لجُين نجيعه المهراق على محفةِ الجراح..

وكأنَّه حان موسم القطاف..

قطافُ اليانع من أرواح الموقنين..

وتحصُدُ زخَّات الرصاص هامة يوسف..

وتنام سِندانةُ المقاومةِ على أعقابها..

ويحنو الجبل على واديه..

وتهوى شامخات الحور والصفصاف على جُذوعها..

ووحدها الأرض.. وحده ترابها يُشرّع أحضانه مزهوَّاً..

فحبيب يعانقُ حبيباً، وخليل يغيبُ في حجر خليل..

وابتعدت الشمس تجرُّ خيوطها.. وليس خلفها يوسف..

ونام الصباح بين عينيه..

وتناثرت حبَّات الندى على وجنتيه..

وغطَّت صدره خيوط الفجر..

ووسدته حبات الظلام..

فنام متزمّلاً بُردة غدهِ كفناً حاكه بحلمهِ الطويل.. والعرس هناك..

ففي ١٩٦٣/٢/٦ تنفَّست الأرض فكان وليداً..

وفي ١٩٩٠/٢/٦ استعادت الأرض أنفاسها فكان شهيداً..

وبين الولادة والشهادة ميثاقُ عهدٍ وإبرامُ وعدٍ «انظروا دمانا وتابعوا الطريق»..

يوسفُ أيها الصدِّيق سلاماً..

عِتقُ رقابنا بين يديك..

فهل إلى شفاعةٍ من سبيل؟..

أخوك الشيخ محمد سبيت